الزيارات الباديسية الأربعة للحاضرة التونسية
دراسة في المسار التاريخي والفعل السياسي

د. حميدي أبوبكر الصديق
قسم التاريخ جامعة المسيلة. الجزائر.

مقدمة

لقد كثرت الدراسات التي تهتم بالصلات الإصلاحية الجزائرية التونسية وما صاحبها من العمل السياسي وروح التضامن الفكري والوحدوي ، وتوحيد المعركة ضد الاستعمار ، ومن المهم جدا إكمال المشهد من خلال الرصد المركز للمحطات الهامة في هذا المسار من العلاقات وخاصة على يد الزعيم الأول للحركة الإصلاحية الجزائرية ابن باديس .

وفي هذا الإطار تتبعت المسار التاريخي للرجل من حيث حضوره للحاضرة التونسية والفعل السياسي الذي صاحب ذلك. والجدير بالذكر أنه فضلا على مرحلة الدراسة التي قضاها بتونس وما صاحبها بين 1908 ـ 1912 فإن الزيارات الباديسية تم حصرها في أربع زيارات . كان لها من الظروف والإعداد والأثر السياسي ما يستدعي الوقوف عليها من خلال هذا المقال من حيث معالجة البعد الذي كان يتحرك فيه ابن باديس في الحاضرة التونسية . و ماهي الجهات التي كان يتعامل معها ؟ و ماهو الدور الذي لعبه في خضم الظروف السياسية المحيطة سواء لصالح التونسيين أو أبناء الجزائر ؟

❖ **الزيارات الباديسية لتونس :**

من خلال تتبعنا للزيارات التي قام بها الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى تونس بعد انقطاعه عن الدراسة بها منذ 1912 تم حصر أربع زيارات قام بها الشيخ عبد الحميد إلى تونس كانت الأولى في 1920 والثانية في 1936والثالثة والرابعة في 1937 .ومن خلال هذا العمل المتواضع نبرز الظروف والأسباب التي أحاطت بكل منها ، والأثر الفكري والسياسي الذي تمخض عنها.

❖ **الزيارة الأولى :**

كانت هذه الزيارة في 20 أوت 1921 ، وإن كانت المصادر الفرنسية أوردتها على أنها زيارة علاجية ورافقه فيها أمه وأبيه ، واكتنف هذه الزيارة الكثير من الغموض لغياب ذكرها في المصادر الإصلاحية التي بين أيدينا ، وأوردت المصادر الفرنسية أنه اتصل بصديقه القديم الثعالبي ورجال الزيتونة ، كما تناولت جريدة النجاح القريبة من السلطة الفرنسية هذا الحدث ولكن بعد مرور الوقت بأشهر حيث ورد في أحد أعدادها بتاريخ 19 ديسمبر 1921 أنه التقى ببعض زعماء الإصلاح ومنهم الميزابيين الذين كانت لهم بعثات طلابية منظمة فأهاب بجهودهم لصالح العلم فقال : " إن الشعور الوطني إذا أفعم القلوب، لا بد أن تظهر ثمراته في الأعمال حتى تبلغ به الأمم غاية الكمال، فهو كالماء تحت الجماد لا بد أن ينبعث فتتشقق له الحجارة، وتنفجر منه الأنهار، وهاهم أولاد إخوتنا الميزابيين، سرى فيهم شعور صحيح، فولعوا بالتقدم، فأخذوا يتمسكون بأسبابه، بجد واجتهاد. أخذوا في طريق التجارة حتى ملكوا أزمتها، وصاروا العضو القوي الإسلامي بالجزائر فيها. وهاهم اليوم يسعون في طريق العلم، ويرحلون في طلبه، وأخلق بهم أن ينالوا منه ما يريدون"[1] . ومن الطبيعي أن يعجب ابن باديس بالثمرة الطلابية العلمية الميزانية التي كانت تتوجه لتونس منذ بداية الحرب العالمية الأولى .

وفي بداية الثلاثينات كانت السلطات الفرنسية تتابع كل اتصال مع تونس سواء مع الطلبة أو العلماء وتتوجس من أي علاقة أو مراسلة ، وذكرت التقارير الفرنسية أنها علمت بمساعي ابن باديس حول نية الانتقال لتونس وحث أهل العلم والوطنيين فيها على تكوين

[1] ـ صالح خرفي ، **عبد العزيز الثعالبي**، دار الغرب الإسلامي ، ط 01 ، 1995. ص 434.

جمعية بتونس على غرار جمعية العلماء بالجزائر[1] ، وقالت هذه التقارير أن ملف الجمعية هو موجود عند الموثق المسمى عبد العزيز البوندي ، على أن يكون مقرها بالقيروان ، وتهدف إلى توثيق الصلة بين الشعبين. وهي تعمل أيضا على لم الشمل لكل الطاقات والمفكرين في شمال إفريقيا للنهوض بالمنطقة في شتى المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية ، وحسب هذا التقرير الذي يعود إلى سنة 1934 فإنها تحضي بدعم الحزب الدستوري الجديد على غرار كل الناشطين والمعارضين للسياسة الفرنسية في شمال إفريقيا [2] .

والواقع أننا لم نعرف قيام مثل هذه الجمعية في تونس، فهل أن الظروف لم تسعف القائمين على الملف ؟ أم أن أسبابا أخرى وراء ذلك وهذا في ظل غياب معطيات ووثائق نقابل بها ذلك. مع أن هذه المبادرات ليست بالغريبة في هذه المرحلة بين أبناء شمال إفريقيا والاهتمام بالنهضة والتعاون المشترك ، ولكن الدوائر الاستعمارية تطرح وتعطي أوسع التأويلات للتآمر عليها حول أي مبادرة من هذا النوع

❖ **الزيارة الثانية** :

كانت الزيارة في23 ديسمبر1936 ، في زمن أصبح ابن باديس الرمز الإصلاحي في الجزائر وللجمعية السمعة الواسعة بين حركات النهضة ، وله مقاما بين أهل العلم والفكر والنخب الثقافية والسياسية في شمال إفريقيا ولذلك غطت الصحافة الإصلاحية هذا الحدث ، كما تفاعلت معه الصحافة التونسية وأن الطالب الزيتوني القديم صار علما إصلاحيا .

ومن الطبيعي أن يحمل معه انشغال الطلبة الجزائريين بتونس، باعتبارهم حملة المشروع الإصلاحي في المستقبل.إضافة إلى تناول القضايا السياسية وهموم الشمال الإفريقي وفي مقدمتها الاستعمار الذي يمنع أي جهد للنهضة أو التآزر .وكانت الفرصة مواتية للقاء أهل العلم والفكر ومدارسة أهل العلم والفكر حول سبل النهضة وتحدي الصعاب والتعاون بين أبناء الشمال الإفريقي . وهذا الجهد كان يصب في الوحدة الفكرية بين النخب العلمية وتبادل الخبرات وخاصة في ميدان التعليم ومناهجه وعصرنته وتطوير وسائله [3].

أما مجريات الزيارة فقد كانت حافلة ومتنوعة المحطات منها استقباله من طرف الطلبة الجزائريين وهيئة المجلة الزيتونية [4] وعلمائها، وبقبة الصحف التونسية تناقلت الخبر بأهمية بالغة وكان من أهم نشاطاته إلقاؤه لخطاب في رحاب المجلة الزيتونية في جو مأدبة على شرفه.وبهذه المناسبة حيا المجلة الزيتونية في منهجها للإصلاح الفكري السياسي ونصح بالانفتاح على المعارف الإنسانية وهذه العلاقة بين ابن باديس والنخبة الإصلاحية التونسية والمتابعة المستمرة لشؤونها وأهميتها بالنسبة لشمال إفريقيا جعله معني بإصلاح مؤسساتها العلمية وعلى رأسها الزيتونة.

ومن جهة أخرى فإن السلطات الاستعمارية تابعتها بدقة من حيث التحرك واللقاء ومحتوى الخطاب في كل مقام حل به ، وخاصة أن هذه الزيارة جاءت في ظرف ارتفعت فيها النبرة السياسية في كل من تونس والجزائر، ولأن الرجل التقى بالطلبة الجزائريين فضلا على الشخصيات الهامة مثل الماطري والحبيب بورقيبة من الحزب الدستوري الجديد ، ومحمد العيد الجباري [5]، وصديقه الطيب بن عيسى صاحب جريدة الوزير ، وخليفة محمد العيد بن خليفة بن محمد لحساسنة (جزائري الأصل) وهو مؤسس في الهيئة السياسية الجديدة المسماة ـ الشباب الموحد لشمال إفريقيا [6]ـ التي ضمت جزائريين وتونسيين ومغاربة. وحسب المصدر الفرنسي أن هذه الزيارة عملت على تحقيق عدة أشياء منها:

---

[1] ـ لم نعثر في المصادر العربية على ما يشير إلى هذه المعلومة ومحاولة تأسيس جمعية للعلماء في تونس على غرار الجزائر، وإن كان التكوين الإصلاحي وعلاقته بالزيتونة والظروف الخاصة بتونس تختلف شيئا ما عن الجزائر.

[2] ـ A.N.O.M, F.D.C,93/9446, BULLETIN de renseignements des questions musulmanes, le20/07/1934.

[3] - الجابري محمد الصالح،**النشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900 – 1962)**. د.ت.ط، الدار العربية للكتابة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1983،، ص83.

[4] -كانت تصدر بالزيتونة ويشارك فيها بعض الطلبة الجزائريين بمقالاتهم .

[5] - وهو أحد الطلبة المتخرجين من الزيتونة ، وكون سنة 1936 منظمة طلابية مغاربية تسمى شبيبة شمال إفريقيا الموحدة . للمزيد أنظر : شترة خير الدين ، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة ، ج1 ، دار البصائر ،الجزائر ،2009 ، ص 569

[6] -كانت السلطات الفرنسية تتابع بدقة تحركات ومنشورات هذه الهيئة التي ترى فيها خطرا عليها بشمال إفريقيا .

- المواطنة ولكن في إطار الأحوال الشخصية.
- مواجهة الجزائريين الذين يناضلون ضمن مشروع بلوم فيوليت [1].
- إنشاء فريق ينظم التقارير وينسق بين الأحزاب الوطنية في البلدين،
- تمتين العلاقات مع علماء تونس ،
- تعزيز سبل الوحدة والمحبة بين شمال إفريقيا.

❖ **الزيارة الثالثة :**

تمت في ماي 1937. وحل خلالها الضيف بتونس في زمن كشفت فيها عيوب الجبهة الشعبية الحاكمة في فرنسا وسياسة المراوغة لشعوب شمال إفريقيا وأقام عدة نشاطات ولقاءات مع هيئات منها : الجمعية الودادية الجزائريين،[2] و جمعية التلاميذ الجزائرية ، والتقى مع الكثير من أهل العلم والسياسة ورجال الأعمال والعمال ولم يقتصر حديثه عن الجزائر بل أصر الكلام عن كل شمال إفريقيا قائلا : أن النهضة لا تكون إلا بالتضامن بين كل رجال المغرب العربي [3] . وحمل العلماء المسؤولية في النهوض بالأمة لأن العلم و الدين لا ينهضان إلا بنهوض السياسة.

وضمن لقاءاته حضر حفلا أقامته جمعية الخلدونية بمناسبة الذكرى الخاصة بوفاة البشير صفر أحد أساتذة ابن باديس . وفاء للرجل الذي علمه وقال أنه تجمعت فيه الكثير من الصفات منها :

- أنه صاحب علم غزير وثقافة واسعة مهتما بأمته وأضاف : "وأنا شخصيا أصرح بأن كراريس البشر صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في إطلاعي على تاريخ أمتي و قومي والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت في اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر"[4].
- الاطلاع على اللغات الأجنبية بما يفيد به أمته .
- رفض الوظيف ولكنه قبله عن مضض بعد أن ألح عليه الوزير المرحوم السيد عبد العزيز بوعتور فاستجاب خدمة لأمته
- أنه استفاد بما أخذه من علوم باللغات الأجنبية ليخدم بها أمته وبعد عودته من باريس.
- استغل مختلف الوظائف: الصحافة و الفلاحة و المعارف لخدمة أمته [5] .

أما السلطات الفرنسية فذهبت إلى أنه في اليوم الأول من الرحلة(28 ماي) تكلم بإلحاح عن الوحدة بين مسلمي شمال إفريقيا وفي اليوم الثاني(29 ماي)عقد مؤتمرا في قصر المؤسسات الفرنسي أين تم اللقاء مع علماء تونسيين وتم الحديث عن الجبهة الشعبية التي وقفت ضد مطالب سكان شمال إفريقيا وأخلفت وعودها.

ويعتبر هذا الظرف حساس بالنسبة لفرنسا التي تراقب الوضع في كامل شمال إفريقيا التي يئست من الوعود وانكشفت الجبهة الشعبية ، وما أثاره المؤتمر الإسلامي في الجزائر ومشاركة العلماء فيه وبالتالي دخولهم على الخط السياسي بشكل صريح ، ولذلك فزيارة ابن باديس لم تأخذها فرنساعلى وجه البساطة ، بل تدخل في لغة المؤامرة والتنسيق بين الوطنيين والإسلاميين في كل من الجزائر وتونس.

وحتى بعد عودة ابن باديس ظلت فرنسا تتوجس من آثار هذه الزيارة وترصد كل الاتصالات .ففي تقرير للشرطة الفرنسية أن شخصا تونسيا يسمى فاروق عمر عيسى قدم إلى قسنطينة وتقابل مع ابن باديس ورغم علم السلطة الفرنسية به وإشعارها بالمغادرة إلا أنها

---

[1] - علقت عناصر جزائرية وبعض رجال الحركة الوطنية آمالا على وعود الجبهة الشعبية ولكن عند وصولها للحكم تنكرت لكل الوعود ، وكرست السياسة الفرنسية بوجه جديد .

[2] - شترة خير الدين ، مرجع سابق ، ص 432.

[3] - محمد الصالح الجابري، مرجع السابق، ص45. أنظر أيضا :

[4] - **آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس**، ج4، ط1، ،دار البعث ، الجزائر 1406هـ، ص317.

5 - **آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس**، ج4.مرجع ، سابق ، ص317.

ربطت هذا المجيء بالزيارة الأخيرة لابن باديس نحو تونس ودارت تخميناتها حول اتصال الدستوريين بالشخصيات القدامى وخير من يمثل ذلك في نظرها ابن باديس [1].

وبعد عودته وجه تحية للتونسيين على حفاوة الاستقبال ن وقال ك " أودع الأمة التونسية الكريمة شاكرا لها ولصحافتها الراقية ما أبدته نحوي عن عادفة الود الأخوي الذي فاق كل تقدير ، وإن الذي يسرني حقا من ذلك هو أنه كان موجها في الحقيقة نحو مبدأ الاحتفاظ بالذات العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي كله والإعلان بوحدة أقطاره ... في الحاضر والمستقبل ....مثلما هي ثابتة في الماضي..." [2]

❖ الزيارة الرابعة :

كانت في 22 جويلية 1937 [3]وتعد الرحلة الثانية خلال سنة واحدة، وهذا يعود إلى إطلاق سراح الزعيم الثعالبي[4] وعودته للوطن والعلاقة الحميمية التي تربطه به وبعد منفى دام خمسة عشر عاما وأبت الجمعية إلا أن يمثلها الرجل الأول في الاحتفال بمناسبة عودته، ونوهت بمقام الرجل العائد في شمال إفريقيا ، وهو أحد رموز النهضة العلمية والتربوية ، وكعادتها راحت الصحافة الفرنسية تضخم من الحراك الذي تمثله الزيارة والخطوة الكبيرة نحو توحيد الجهود بين زعماء الحركات الوطنية في شمال إفريقيا[5].

وذهبت الصحافة الفرنسية بعيدا في قراءة الحدث وقالت أن " فكرة فيدرالية شعوب شمال إفريقيا " التي وجدت منذ مدة وكان يعمل لصالحها الثعالبي تستعيد روحها اليوم ويتبناها ابن باديس وبالتالي يمكن للثعالبي أن يبعث مشروعه القديم، ومن دون شك أن مؤسسي الحزب الدستوري الذي يعد توفيق المدني من عناصره الأساسيين وفي نفس الوقت المستشار السياسي للشيخ عبد الحميد ابن باديس ومن ثم يمكن أن تكون هذه الفكرة محل اهتمامه أثناء تواجده بتونس.[6] وزعمت أنه يوجد خلاف بين الرجلين حول قضية الإلحاق والمشاركة في المؤتمر الإسلامي الذي يتحفظ عليها الثعالبي وهو خدمة للجبهة الشعبية دون الحصول منها على شيء وأعجب بموقف مصالي حيال المؤتمر. ويضيف نفس المصدر أن الثعالبي طرح أنه قبل وضع أسس متينة للتعاون من أجل شمال إفريقيا لابد أن نكون في الميدان وأجابه أبن باديس بأنه قرر مراجعة ميثاق المؤتمر[7]، وإنما برهن من خلاله على درجة الوعي السياسي الذي أبداه الشعب الجزائري، وأننا إذا تطلب الأمر ننظم احتجاجا مدنيا كذلك. وسوف نأخذ شؤوننا بأيدينا ونكون في مستوى الحركة الوطنية في تونس والمغرب من أجل ممارسة متوازنة للمشكل المغاربي، وأن ميثاقنا الجديد سوف يجسد القطيعة مع الجبهة الشعبية .[8]

واعتبرت الصحافة التونسية هذه الزيارة الخاصة بعد الرسالة بالتهنئة من قبل الجمعية للثعالبي دلالة على العواطف النبيلة بين للرجلين ونوهب بما يقوم به الرجل في الجزائر وخاصة مسيرته مع الشهاب التي ظلت تعني بالإصلاح في المغرب العربي ومحاربة المخاطر المشتركة وعلى رأسها قضية الظهير البربري في المغرب وقضية التجنس في تونس[9] واعتبرت البصائر أن الزيارة ركز فيها الحديث على الشمال الإفريقي والوحدة وسبل الإصلاح والنهضة مما بعث الأمل في الشباب وأوجدوا فيه عنوانا للوحدة.

---

[1] _ A.N.O.M, G.G.A, 10H88, étude, notices sur les activités des oulémas1939 -1954, Rapport Le23 juin 1937 .

[2] ـ شترة خير الدين ، مرجع سايق ، ص 432.

[3] ـ للملاحظة هناك من أرخها بتاريخ أوت 1937.أنظر: شترة خير الدين ، مرجع سابق ، ص 432.

[4] ـ نفي عدد من زعماء تونس في نفس الفترة كالثعالبي وتوفيق المدني ، ومن الجزائر الأمير خالد .

[5] - أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي**،، ج3 ،دار الغرب الإسلامي لبنان ،1998،، ص600.

[6] - A.N.O.M, F.D.A, 4 I / 28, panislamisme et panarabisme, projet de fédération des peuple Arabe nord – africains, D: n° 05.

[7] ـ هذا الكلام يعود للمصادر الفرنسية ، أما موقف بن باديس من المؤتمر وما جاء فيه نعتقد أن المطالب المطروحة كانت مستحيلة التنفيذ من قبل فرنسا .

8 ـ A.N.O.M, G.G.A,10H88, étuede,notices sur les activities des oulémas, L'entrevue TAALIBI - BEN BADIS et ses repercussions sur La situation en Algérie , 03/ 08/1937.

9 - محمد الصالح المهيدي، " ابن باديس يزور تونس"، الهداية ، ع154، 28محرم، صفر 1423، مارس أفريل 2003، ص67 .

ومن الطبيعي أن تكون هذه الزيارة فرصة للقاء الجالية الجزائرية وفي مقدمتها الطلبة الذي احتفوا به في جلسة تأسيسية لجمعية الإخاء الجزائري ، كما استقبلته الجمعية الزيتونية وأقامت له حفلا [1]، ورصدت الجريدة الطلابية (الثمرة) [2]الصادرة حينها صدى هذه الزيارة و قصائد حولها و رسالة ابن باديس لهم بأن يمثلوا حقيقة مهاجري العلم[3] .

وذهب الجابري إلى أن هذه الزيارة تحكمها عدة عوامل من بينها النظر إلى أن الثعالبي من أسرة جزائرية عريقة وهو زيتوني عريق علما وسلوكا، وتتجسد فيه مآثر العلم بنظرة متطورة.

وبالتالي فهذه الزيارة كانت لها عدة أبعاد سياسية ، وتضامنية وتقديرا لأهل العلم والكفاح ورد الاعتبار لهذا المناضل الذي قضى 15 سنة في المنفى في سبيل الوطن وله تاريخ عظيم مع الحزب الدستوري وقد وصف ابن باديس هذا الموقف "عاد الثعالبي فاهتزت فرحا إفريقيا الشمالية كلها وتونس وطنه والجزائر مسقط رأسه ووطن أسلافه، ورأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قدومه اعتزازا بالإصلاح الاجتماعي من ناحية الفكر والعلم والإخلاص والسلوك في الحياة ، وهذا ما تعمل له الجمعية، فأبرقت تهنئه وتهنئ الأمة التونسية الشقيقة به، ثم رأت أن تعرب عن سرورها بقدومه وإعجابها بمواهبه وتعظيما لجانبه بذهاب رئيسها لتحيته وتهنئته بقدومه وإبلاغه كل ما تحمله الجمعية والجزائر العربية المسلمة من الحب والتعظيم والاحترام لشخصه " [4].

ولا يزال ابن باديس يحتفظ للرجل مقامه وأصوله ، ففي معرض حديثه عن الثعالبي يذكره باسمه المجرد ويقول أنه علما على الرجولة والبطولة والزعامة ومن أسرة شاهدت وشاركت في رد الحملة الفرنسية على الجزائر، وأنه زيتوني تعددت عبقرياته من فهم وتفكير وخطابة وكتابة، ولقي من الجامدين والمستبدين أذى كبيرا ولكنه لم يتزحزح قيد شعرة، وهو ممن تعلم بالأزهر على يد البشري[(5)]، وعاد لتونس وهو يحمل تكوينا إقليميا وعالميا، وأن رحلته الأخيرة (المنفى) إلى المشرق عنوان الوحدة وروح الاتصال والعلم الإفريقي الخفاق الذي لفت أنظار المشرق إلى الشمال الإفريقي، وهناك أدى وظيفة الدليل المتنقل والبرهان الساطع على ظلم الاستعمار ويكذب كل ما يتظاهر به .

وكان ذهاب ابن باديس ليس باسمه فحسب ولكن باسم الجمعية أيضا حيث قال ابن باديس أنه ذهب لتونس لزيارة الثعالبي في داره وبلغته عن الجمعية رسالتها، فقابلها بالثناء وتقبلها بالفرح والسرور لأنه فارق الشمال الإفريقي ودعوة الإصلاح ضعيفة فيه، ثم عاد إليه بعد مدة فوجد للإصلاح جندا قويا، وصوتا عليا، وتقديرا لأمثاله المصلحين، ثم يذكر أنه بعد هذا اللقاء الرسمي باسم الجمعية مع الثعالبي تنقلت بين مجالس وحفلات وزيارات [6] بحضرة الشيخ وبدونه.[(7)]

واعتبر بن باديس أن هذا الاحتفاء من الأمة التونسية هو ناجم عما يجمع بين الشعبين من مبادئ "،واحتفاظا بالذاتية العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي [8]كله في الحاضر والمستقبل مثلما هي ثابتة في الماضي وأفضل الود والإكرام ما كان للمبادئ الخالدة.[9]

❖ الوساطة الباديسية بين التونسيين

نظرا لاحتدام الصراع الاديولوجي بين الدستوريين: أي بين أنصار الثعالبي وأنصار بورقيبة ، وامتداده إلى المناضلين ، استغلته السلطات الفرنسية في تونس لزيادة الهوة بينهما ، وكان على ابن باديس أن يدلي برأيه للصلح بين الأشقاء وخاصة أن الدعاية المتبادلة بين

---

1 نفسه .

[2] ـ هناك الثمرة الأولى والثانية ، أصدرها جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونين .

3 - AMAR: HALLAL, op.cit, PP 306- 308.

[4] ـ محمد الصالح الجابري ، مرجع السابق ، ص ص 91-92 .

[5] - هو الشيخ سليم بن أبي فراج تولى مشيخة الأزهر مرتين وعاش بين (1867-1917) ، فقيه مالكي. أنظر صالح خرفي عبد العزيز الثعالبي، مرجع سابق، ص 393.

[6] ـ كانت هذه الزيارة مناسبة استغل فيها ابن باديس الفرصة للقاء والزيارة : الطلبة ، ورجال الإصلاح ، السياسيين .

[7] صالح خرفي ، مرجع سابق ، ص 393 ـ 395.

[8] ـ طفت على السطح بشكل واضح عبارة الشمال إفريقي وصارت محل نضال بين السياسيين في أقطار المغرب العربي في هذه المرحلة .

[9] - عبد الحميد بن باديس ، الشهاب، ، م13 ، جمادي الأول 1356 ، جويلية 1937 ، ج5 ، ص 238 .

المتنافسين تجاوزت القطر التونسي، فنجد جريدة الإرادة التابعة للدستوري القديم تصف جمعية المستقبل التمثيلية التي قدمت إلى قسنطينة بأنها تروج لأنصار بورقيبة والماطري،[1] وحذرت هؤلاء أنهم من خذل الوطن وتصفهم بالتقصير في حقه .[2] خلال هذه المرحلة انتقل صدى الصراع للجزائر بواسطة الصحافة .كما أن التنابز السياسي الداخلي قد اتسعت دائرته والاحتدام صار محموما بين الاستعمار والحركة الوطنية التونسية ، فكان لعلماء الجزائر مُثلينَ في ابن باديس حضورا لرأب هذا الشقاق فاستغلت عودة الثعالبي ليحضر الشيخ عبد الحميد بن باديس الجلسة التمهيدية لسلسلة الاجتماعات التي كانت تعقد من أجل التوفيق بين الطرفين المتصارعين. وخلال الاجتماع الذي عقد بمنزل الثعالبي في جويلية 1937 أكد هذا الأخير أن المصلح الجليل عالم الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى جانب السيد البشير البكري، و الدكتور أحمد بن ميلاد قد دعوا الجميع للتصالح لمصلحة الوطن. وكان لقاءً عم فيه الصفاء ، واعتقد الجميع أن عهد النزاع والصراع قد انتهى ، مع أعطاء موعد اللقاء القادم لإكمال حل هذا المشكل [3].

ونظرا لقيمة الرجلين الثعالبي وابن باديس في الأوساط التونسية والجزائرية فإن هذا اللقاء مثل رمزية كبيرة ، إضافة على الأفكار التي كانت محل مناقشة والتي تهتم بالمشكل المغاربي ومعالجته بشكل جماعي، وخاصة أن هذا اللقاء جاء في ظروف اليأس من أي إصلاحات منتظرة من الجبهة الشعبية . ومن جهتها السلطات الفرنسية رأت في الزيارة أنها حفزت ابن باديس ليطرح عدة قضايا وقالت أنه بعد عودة ابن باديس للجزائر في جويلية مباشرة قدم برقيات إلى وزارة الشؤون الخارجية والداخلية مفادها أن السكان صاروا أقلية وطنية في الجزائر، ويطالبون بحقوقهم الخاصة، كما انتقل للعاصمة والتقى بالمكتب الخاص بالمؤتمر الإسلامي بحضور البشير الإبراهيمي وعرض مسألة وضعية الأقلية التي يعيشها الجزائريون في وطنهم، وحسب المصدر الفرنسي أنه خلص إلى ضرورة اجتماع المؤتمر ثانية من أجل وضع ميثاق جديد يتم فيه رفض الإلحاق بفرنسا ليقدم إلى اللجنة البرلمانية للتحقيق في المستعمرات والتي سوف تنقضي مهلتها بعد 18 شهرا حتى تأخذ مسألة الجزائر بعين الاعتبار .[4]

وبعد عودة ابن باديس للوطن قيل أن المجلس الإداري اجتمع وتداول الظروف العامة في المنطقة ، ومن النقاط التي دارت ضرورة مراجعة التحالف السياسي الذي جرى في المؤتمر والقيام بعمل يماثل مستوى البلدين الشقيقين وكانت هذه هي نظرة العقبى وخير الدين الذين تمنيا هذا الطرح قبل اليوم [5]. وفي الحقيقة أن مراجعة ابن باديس لهذه القضايا ليس بالضرورة نابعا من أثر الزيارة كلية بقدر ما آلت إليه تجربة الحركة الوطنية في التعامل مع الجبهة الشعبية ووضعها عند وعودها .

وظلت هذه العلاقات مستمرة بين الرجلين :ابن باديس والثعالبي لتبادل الرؤى في مختلف القضايا ومن بينها الرسالة التي كانت في 07 سبتمبر 1937 أي بعد عودته من تونس ويصفه فيها بالأب العزيز، وهذه الرسالة تتمحور حول قضية تتعلق بالجزائريين المقيمين بتونس ولكنه لم يذكر طبيعتها ويقدرها بأنها ذات أمر مهم قائلا له أنه بعد أن جاءني كتاب من الجزائريين بتونس وقد وجهته إليكم مع ابننا محمد دحار فأرجو أن تطالعوه وتبنوا عليه ما ترونه واجبا وتردوه مع نفس الشخص.[(6)]

فرغم بقاء محتوى هذه القضية غامضة لدينا فما نقف عليه من هذه الرسالة ذلك التقدير العالي بين الرجلين، والتعاون على حل قضايا الجالية الجزائرية في تونس مع ما يصحبه من احترام واعتبار لرأي كل من الرجلين، والشعور بالمسؤولية تجاه مشاكل البلدين وأنهما معنيان رسميا وأدبيا بالنظر في قضايا شعبيهما.

---

1 -كان الماطري من العناصر القيادية في الحزب الدستوري الجديد ولكنه قدم استقالته سنة 1938 تحت غطاء الظروف الصحية ، ولكن لا يستبعد خلافه مع بورقيبة .

2 - " جمعية المستقبل التمثيلية، جريدة الإرادة، ع 102، س 1، 23 محرم 1353 هـ، 6 ماي 1934م.

3 - صالح خرفي ،مرجع سابق ، ص335 .

4 – A.N.O.M, G.G.A, 10H88, etude, notices sur les activities des oulémas.

5 - ibid.

6 - صالح خرفي، مرجع سابق، ص 334.

➢ الخاتمة

لقد كانت صلات ابن باديس بالزيتونة متواصلة ولم تنقطع طيلة حياته انشغالا أو مراسلة أو انتقالا ، وكان يعتبر الحاضرة التونسية من خلال علمائها وجامع الزيتونة الفضاء العلمي الذي تتكون فيه النخبة الإصلاحية والفكرية التي يمكن أن تساهم في النهضة بالجزائر في ظل الهيمنة الفرنسية. ولهذا أعطى اهتماما خاصا للبعثات الطلابية والجمعيات التابعة لها هناك .

وقد ترجم ابن باديس هذا الاهتمام من خلال الزيارات المتكررة لتونس واختيار المناسبات المهمة ، والاتصال بمختلف الجهات العلمية والسياسية وحث أهل العلم على التحديث في المناهج وطرق التدريس ، وحث الساسة على تحقيق أبعاد الوحدة الفكرية والثقافية والسياسية لشمال إفريقيا.وتبليغ رسالة للطلبة مفادها أن التقدم مرهون بالتحصيل العلمي والاجتهاد . والمهمة التي تنتظرهم في عملية النهضة .

ويمكن أن نحدد جملة من الأهداف التي كان يتوخاها من الزيارات الأربعة التي رصدناها :

- ـ إكمالا للتواصل مع الحاضرة التونسية التي تمثل بالنسبة إليه ينبوع المعرفة الذي تغذى منه ووسع من أفقه .
- أن ابن باديس بلغ من العطاء العلمي والسياسي ما مكنه من احترام الساسة وأهل العلم في ربوع المغرب العربي ، مما حتم عليه الإدلاء برأيه لعلاج عدد من قضايا دول الجوار .
- كان نشاطه يعزز التواصل بين البلدين ويؤمن احتياجات الطلبة الجزائريين بالزيتونة علميا وماديا وفكريا .
- ساهم في رأب الصدع وهوة الخلافات السياسية الكبيرة بين زعماء تونس معتبرا ذلك من مسؤولياته المعنوية .

وعموما أن ابن باديس استفاد من الحركة العلمية والفكرية التونسية في بناء تكوين جيل من الطلبة تحمل عبئ النهضة ، وحاول ربط الصلات العلمية والسعي إلى تطوير المناهج الدراسية وتجاوز التلقين التقليدي الذي لا يغني العقول ، وحمل المسؤولية الكاملة العلماء ،وإذا كان المجال الذي يتحرك فيه يدور حول الإصلاح الديني فقد وثق علاقاته مع النخبة السياسية التونسية لتعزيز مشروع الوحدة الفكرية والسياسية التي تعد ضرورية للنهضة ومواجهة الظاهرة الاستعمارية .